قضايا المنهج عند أعلام نظرية التأويل

عرض وتقديم كتاب[1] «هرمنيوطيقا ميرسيا إلياد» لآدريان مارينو.

Method's issues among the prominent figures of the theory of interpretation

Presentation of the book «Mircea Eliad's hermeneutics» of Adrian Marino

مليكة دحامنية*

جامعة بومرداس –الجزائر dehamniamalika@gmail.com

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021-09-25	2021-09-30	2022-06-01

ملخّص: هذا الكتاب هو نقد في الأفكار بما فيها الأدبية، يطوّرها –الكاتب–[2] ويعيد بناءها على أسس جديدة انطلاقا من العنوان نفسه.

فيم تتمثل هذه الهرمنيوطيقا، «هرمنيوطيقا ميرسيا إلياد»؟

إنها تتمثل في "الاكتشاف" و"التوضيح" و"إخراج المعنى إلى النور" ثم بعد ذلك وضع تقاليد هرمنيوطيقية تصحح المسار –مسار غلو الذاتية– والنظرة الأحادية الضيقة انطلاقا من مجتمع الكاتب نفسه –المجتمع الروماني– الذي يعيش فيه.

ستتيح هذه الهرمنيوطيقا الجديدة خلق طرق جديدة لقضايا التأويل والتفسير –النظرية منها والتطبيقية– مع مد جسور مباشرة لها داخل النقد الإيديولوجي، الأدبي والفني على حد سواء.

كلمات مفتاحيّة: الهرمنيوطيقا؛ التأويل؛ التفسير؛ الدائرة التأويلية؛ الكل والأجزاء؛ الفهم الماقبلي؛ الاستبصار؛ الإيوخا (التعليق)؛ الأحكام المسبقة المشروعة؛ المقدّس؛ تقاليد النص؛ تجديد النص؛ عالم النص؛ التحوّل الكلي؛ التعايش؛ معنى منيع.

---

* المؤلف المرسل

Abstract: This book is a criticisme of ideas including literary ones, developed and reconstructed by the author on new foundations starting from the title itself.

In what does this hermeneutics consist, «Mircea Eliad's hermeneutics» ? It consists in the discovery, the clarification and the bringing of meaning to light, and after that the establishment of hermeneutical traditions which correct the path – the path of high subjectivity- and the narrow unique vision from the author's own society –Romanian society- where he lives.

This new hermeneutics will permit the creation of new ways for the issues of interpretation and exegesis -both theoretical and practical-, and making direct bridges to it within as ideological, literary and artistic criticism.

Keywords: hermeneutics; interpretation; exegesis; hermeneutical circle; the whole and the parts; pre-understanding; clairvoyance; *époché* (suspension); legitimate prejudices ; the sacred ; the text's traditions ; the text's regeneration ; the world of the text; the complete change; coexistence; inaccessible meaning.

1- المقدمة: تعريف الهرمنيوطيقا

الهرمنيوطيقا هي طريقة لحلّ وفك الرموز، هي طريقة لشرح الغامض من النصوص وبيان المعاني التي تحتملها. ظهرت البدايات السحيقة والأصول الأولى للهرمنيوطيقا مع الخطابات الدينية والنصوص المقدسة[3]، وارتبط المصطلح باسم "هرمس" إله الكتابة عند الإغريق[4]. بعدها اتسع هذا المدلول وامتد إلى مجالات أرحب وأوسع بحيث اشتمل على كل الظواهر الدينية والفنية والأدبية (فلسفة وعلم النفس والدراسات القانونية وعلم اللغة "الفيلولوجيا" والشعر ... وغيرها). لكن الأصل في الهرمنيوطيقا هو مجال الدراسات الدينية الباطنية والرموز المقدسة كما يؤكد على ذلك إلياد[5].

تهدف الهرمنيوطيقا إلى البحث عن "المعنى" أو "الدلالة" التي وجدت في النصوص عبر الزمن، وبما أن هذه النصوص هي في الغالب نصوص مبهمة وغامضة، فهي تقترح إمكانية لتأويل هذه النصوص عن طريق شرحها وتوضيح الغامض منها.

إن التأويل يقتفي أثر المعاني المتخفية والمستورة الموجودة داخل المعاني الظاهرة ثمَّ تأويلها بعد ذلك. ينطلق التأويل من معنى واضح وجلي إلى معنى باطن وخفي.

الهرمنيوطيقا إذن هي العلم الذي يضمن الانتقال بين حالتين من اللغة: حالة الغموض والالتباس إلى حالة الوضوح والجلاء بحيث تسمح لنا بتوضيح ما هو غامض ومبهم[6]. إنها تشرح الدلالة الخفية لأي نص من النصوص كـ "دلالة الموت" على سبيل المثال، فهي الوعاء الذي تجتمع فيه جميع الأفكار الروحية والتصورات الدينية[7].

بالنسبة لـ "ميرسيا إلياد"[8] يتكشَّف العالم باعتباره لغة، إنه تعبير عن فضاء حي عميق المعنى والدلالة. الهرمنيوطيقا مطالبة بفك رموز هذا العالم من الدلالات والمعاني، غايتها الوحيدة هي الوصول إلى فهم وقراءة ذلك الفضاء الواسع من الدلالات وتلك الغاية عُرفت مع الهرمنيوطيقا الكلاسيكية أو التقليدية. هذا الهدف التقليدي أعاد اكتشافه "ميرسيا إلياد" من خلال تجربته الدينية والعلمية والفلسفية برمتها.

هرمنيوطيقا "إلياد" تشبه هرمنيوطيقا "جادامر"[9] من حيث إنها تعلو على المنهج أو الطريقة. إنها هرمنيوطيقا مضمرة، باطنة، كامنة ومستترة لا تخضع ولا تمتثل إلا لقانونها الخاص. هذه الهرمنيوطيقا هي في تشكّل مستمر، إذ بقدر ما نتقدم في شرح وتفسير النصوص، بقدر ما نطوِّر من مفهوم الهرمنيوطيقا.

هذه الهرمنويطيقا، إذن، ليست هرمنيوطيقا منهجية، قائمة على أسس وقواعد محددة سلفاً، بل هي هرمنيوطيقا قوامها الصيرورة والتغيّر، قوامها التحوّل المستمر. ففي الهرمنيوطيقا لا شيء يقف على حاله. والنتيجة أن مصطلح الهرمنيوطيقا غير قارّ، غير ثابت.

2- الفرق بين الهرمنيوطيقا والتأويل: الهرمنيوطيقا والتأويل مفهومان متقاربان جدا بل ويتداخلان معا على المستوى النظري والتطبيقي على حد سواء[10]. كيف ذلك؟

يرى "إلياد" أن عملية فك وحل الرموز لأيّ نص تقتضي تأويل هذه الرموز، بل وتعرّف الهرمنيوطيقا على أنها "علم التأويل"، وإذا شئنا أن نمنح الهرمنيوطيقا تعريفا عاما وشاملا قلنا إنها تمثل «نظرية تأويل النصوص»[11]. وهذا يعني –ضمنيا–أن أهميتها تكمن في إقامة مبادئ أو قواعد مشروعة للتأويل. غير أن اكتشاف هذه المبادئ هو العقبة الأساسية التي تواجه الهرمنيوطيقا.

هناك شروط محددة تحاول كل هرمنيوطيقا حقّة التقيد بها:

– **أول** هذه الشروط ضرورة التقيد بالنص، فكل نص يؤوّل باعتباره عالما مستقلا. فالهرمنيوطيقا لا تكون فاعلة ومؤثرة (opérante) إلا إذا التزمت في دراسة الظواهر، أيا كانت، بالرجوع إلى هذه الظواهر وليس إلى غيرها. إن الهرمنيوطيقا، لا تنطلق في عملية تأويل النصوص من مبادئ خارج من النص بل تلتزم بالنص نفسه.

– **ثاني** هذه الشروط، ضرورة الإقرار بمبدأ تعدد التأويلات (la pluralité des interprétations) ذلك أن مسألة تقبّل تعددية المعاني (polyvalence) ضرورة لا مرد منها، ولا يمكننا أن نتجنب هذه المسألة في عملية التأويل. تمثّل الأسطورة على سبيل المثال واقعا ثقافيا معقدا جدا، ومن ثمَّ تأتي إمكانية تأويلها من منظورات متعددة، كل منها يكمل الآخر. هذا الوضع يقودنا إلى النتيجة التالية، وهي أن "التأويل عملية غير منتهية"[12] (L'interprétation n'est jamais achevée). تاريخ الأديان هو في الحقيقة تاريخ التأويلات المتصارعة والمتناقضة القائمة على أساس من الحضور والغياب والتجلي والخفاء وهذا على مدى التاريخ من البوذية إلى المسيحية[13].

صراع التأويلات مبدأ معمول به منذ وقت طويل. فالرموز والأساطير تحتمل تأويلات متعددة ولا يمكن أن نرجعها إلى تفسير أحادي المعنى. لقد أقر بهذا المبدأ أرباب التأويل من أمثال جادامر، ريكور وبيتي. ميرسيا إلياد أيضا، من بين الذين

يرفضون التأويلات الأحادية المعنى، ويؤمن بصراع التأويلات. يؤمن بأن التأويل قائم على مبدأ عدم التكافؤ.

في هذا الصدد يتحدث "إلياد" عن مسألة تزامن المعاني في الرمز الواحد. التضاد والتناقض، والتعدد وتعايش المعاني، كلّ هذا نجده على مستوى النص الواحد. من هنا كان رفض الكاتب للنماذج التأويلية الكلاسيكية التي كرّست فكرة المعنى الأحادي. فباعتباره مؤرخا، واعيا بالعملية التاريخية، يرفض "إلياد" مثل هذه التأويلات المقيدة.

– يقودنا هذا إلى الحديث عن **المبدأ الثالث** (أو الشرط الثالث)، والمتمثل في ضرورة الإقرار بأن التأويل يمكن أن يكون تأويلا مزدوجا، تأويلا مجازيا[14] (allégorique).

التأويل المجازي تأويل تقليدي عُرف منذ القديم وما كان على المؤوِّل المعاصر إلا أن يحوز عليه ويكيّفه وفقا لتطلعاته الراهنة.

يضع "إلياد" مسألة تزامن المعاني على مستوى النص الواحد في قلب عملية التأويل، فمسائل من قبيل "الرمز" و"الظواهر الدينية" و"المبادئ الميتافيزيقية" وغيرها تترجم إرادة أن يتجلى في النص عدد كبير من معاني التناقض والتعارض والتضاد.

إذن ما نستخلصه هو الآتي:

1– لا وجود لهرمنيوطيقا مغالية[15] (excessive) بما أن هذه الأخيرة تقر بهذا "التعايش" و"التزامن" للنصوص مع بعضها، بل وحتى على مستوى النص الواحد الدلالات الدينية والتاريخية والفنية لا يلغي بعضها بعضا، المعنى الجديد لا يلغي المعنى القديم بل يندمج[16] ويتشكل معه في "تركيبة جديدة" وعبر "مسار دلالي مختلف"[17].

2– الهرمنيوطيقا –في أساسها– "معين لا ينضب" من الدلالات، هذه الأخيرة هي في حد ذاتها دلالات غنية، خصبة ومتعددة ومفتوحة على الآفاق.

إذن، تغيّر الدلالات هو النتيجة الحتمية لـ:

– تغيّر تجارب القرّاء

– تغيّر مقاصد ونوايا المؤلفين

– التغيّرات التي تطرأ على اللغة والثقافة بصورة عامة.

الدلالات الجديدة هي نتيجة "وعي جديد بالشيء" وكلّ دلالة تحمل قيمة خاصة بها. ولكن كيف يتم هذا الوعي بالشيء؟ أو بعبارة أخرى كيف تتم عملية التأويل؟ وهل هناك تفسير ممكن بدون "توقعات سابقة"؟

3– الدائرة التأويلية: يتمثل المشكل الأساس للهرمنيوطيقا في فهم السؤال الذي يطرحه النص ثم الإجابة عنه بعد ذلك؛ هذا الفهم هو أقرب ما يكون إلى "الحدس" أو "النبوءة" يحدث هذا عندما ننكفئ على ذواتنا ونعيد فهمها من جديد[18].

هل هناك تفسير محتمل دون "أفكار مسبقة"؟

إنه السؤال الذي طرحه (R. Bultmann) وكان ردّه بالسلب، ذلك أن كل تساؤل وكل تفسير هرمنيوطيقي يستدعي الفهم الماقبلي[19].

جادامر نفسه يتحدث عن "الأفكار المسبَّقة المشروعة"[20] (Préjugés légitimes)، والتي ليس لها علاقة –على الإطلاق– بالأحكام السلبية التي تعيق فهم النص هذا المفهوم الذي شوهته العقلانية[21] وكان ممن أرجعوا الاعتبار لهذا المفهوم.

الأحكام المسبقة هنا –بمفهومها الجديد– تحمل المعنى الإيجابي لما يسمى "الفهم الما قبلي" أو "الفهم الموجه أو المحدد سلفا"[22]، إنه يجعل من هذه الأحكام منطلقا ضروريا للدخول إلى عالم النص وفهم محتوياته.

ولكن إذا كنا ننطلق من معطيات سابقة وإذا كنا نفترض وجود مقدمات ونتائج بصورة قبلية وإذا كانت هذه المقدمات تنبئنا بما تتضمنه النتائج، وإذا كنا نكتشف في النهاية ما كنا نعرفه في المقدمة، حينئذ يحق لنا التساؤل: أين يكمن التطوّر المعرفي

الذي ننشده؟ ألسنا ندور، والحالة هذه، في حلقة مفرغة لا سبيل إلى الخروج منها؟ يؤكد جادامر أنه لا وجود لتأويلات متطابقة[23]، "العود والبدء" يكون مختلفا على الدوام.

حقيقة أن هناك مقدمات معطِّلة، هي نقطة الانطلاق في تفسير الأجزاء (أجزاء النص) تتحدد هذه المقدمات بحسب الوضعية التأويلية القائمة، وبحسب أفق المؤوّل أيضا ووضعيته التاريخية؛ غير أن هذه المقدمة التي نبدأ من خلالها عملية التأويل تتغير في كل مرة، وتتجدد. فطرق التأويل والفهم تختلف باختلاف المفسرين وباختلاف وضعياتهم التاريخية أيضا. صحيح أن هناك بداية معينة تنطلق منها الدائرة التأويلية، غير أن البداية هي دائما بداية مختلفة عن التي سبقتها «لا وجود لتأويلات متطابقة أبدا»[24] (Aucune interprétation n'est identique). صحيح أن كل مفسّر يمتلك أفكارا مسبقة، غير أن هذه الأفكار المسبقة تنمو وتتطور عبر التاريخ وبذلك فهي في تطور مستمر، فالفكرة تتغير من خلال الصيرورة التاريخية. في كل مرة تظهر عناصر جديدة وفروق دقيقة وأحكام لم يسبق أن أعلن عنها أوتوصل إليها مفكر سابق؛ بهذا المعنى يكون "الفهم الماقبلي" على الدوام عملية خلاقة «الفهم الماقبلي هو فهم خلّاق»[25] (La précompréhension est toujours créatrice). وبذلك لا يمكننا أن نتحدث عن تحصيل الحاصل أو التكرار السلبي لنقطة الانطلاق في تأويل النص، بل الأحرى بنا الحديث عن خطوات جديدة نحو الأمام، غالبا ما تكون خفية في حركة لولبية (تصاعدية) (spirale ascendante).[26]

النتيجة التي نستخلصها أن الأحكام المسبقة هي الخطوة التي نلج بها النص، ونحاول من خلالها فهم الأجزاء، هذه الأفكار المسبقة تضيء لنا النص وتساعدنا على فهم المعاني وتأويلها تأويلا جديدا مغايراً للتأويلات السابقة.

كيف ننطلق في عملية التأويل؟ ما الذي يميز هذه الانطلاقة؟

حينما يبدأ المؤوّل في دراسة النص الذي هو بصدد تأويله، تأتي عليه لحظة، قد تكون كلمح البصر، تضيء له الرؤية وتنير له بصيرته، حينئذ يصبح المؤوّل في حالة استبصار(clairvoyance) مما يمكنه من معرفة الحقيقة أو لنقل جوانب من الحقيقة. لكن الاستبصار يدعمه عنصر آخر لا يقل أهمية هذا العنصر هو "البرهان" وبالتالي يتمكن من الإجابة عن أسئلة النص الأساسية التي كانت تلحّ عليه، تلك اللحظة التي يجتمع فيها الاستبصار والبرهان تكون بمثابة الشرارة التي تضيء للمؤوّل كل عملية الفهم وهي التي تحدد أيضا كل مسار العمل الهرمنيوطيقي. في لحظة من لحظات الوعي ينكشف العالم –عالم النص–ويتجلى لنا بكل تناقضاته ... حينئذ نتوصل إلى تأويل جديد مغاير للتأويل السابق، هذا التأويل الجديد لا يلغي بالضرورة التأويل القديم بل يتعايش معه ويشاركه في الوجود وإن كان مخالفا له ومتعارضا معه.

إذن، هرمنيوطيقا "إلياد" تعمل في إطار هذه "الشمولية" وهذه "الكلية" والتي من مزاياها أنها تضيء كل جوانب النص.

4– الكل والجزء: قد نجد في النص تجليات مختلفة من رمز وأسطورة واستعارة ومجاز، تشكل تلك التجليات المختلفة وحدة أو كلية تتبني على أساسها كل عملية الفهم، تلك هي الحقيقة التي من واجب كلّ مؤوّل إدراكها وهي أن النص يمثّل وحدة أو كلّية مترابطة ومتلاحمة، وأن عملية الفهم لا تكون صحيحة إلا إذا كانت قائمة على أساس هذه الحقيقة، تلي هذه الحقيقة حقيقة جوهرية أخرى، وهي أن لا وجود لهذه الكلية إلا بوجود الأجزاء المكوّنة لها.

هناك علاقة متبادلة بين الكل والأجزاء، إدراك الأجزاء لا يكون إلا بإدراك الكل، وإدراك الكل لا يكون إلا بإدراك الأجزاء؛ هذه العلاقة هي علاقة دائرية الكلّ حاضر في الأجزاء والأجزاء حاضرة في الكل[27].

إذن تفترض الهرمنيوطيقا وجود علاقة دائرية مستمرة فعملية التأويل تبدأ من الكل إلى الأجزاء، ومن الأجزاء إلى الكل.

(كل ← جزء ← كل / جزء ← كل ← جزء)

يمكن للمؤوّل خلال هذه العملية أن يتحقق من صحة آرائه ويمكنه أيضا تصحيح الخاطئ منها أو تعديله من خلال العلاقات النحوية والصرفية داخل النص ومن خلال معرفته باللغة ومدى إدراكه لعلاقات النص المنسجمة والمتكاملة.

إذًا، نحن نتحدث عن صورة بلاغية قوامها أن الأجزاء متضمنة في الكل والكل متضمن في الأجزاء ولا وجود لأحدهما إلا بوجود الآخر، الكل للأجزاء والأجزاء للكل، هذه الكلية تتحقق بالأجزاء والأجزاء تثبت الكلية، من هنا تأتي أهمية تحليل الأجزاء وإدراكها إدراكا حقيقيا من خلال عملية الحفر في النص[28] (creusement) والتدقيق في تفاصيله عبر عملية الذهاب والإياب من الأجزاء إلى الكل ومن الكل إلى الأجزاء، ليس للجزء أي معنى خارج نطاق بنية النص، فهي الكفيلة بمنحه معنى من خلال علاقته بالأجزاء الأخرى، غير أن فهم الأجزاء لا يتم إلا بعد أن نكون قد أدركنا النص في كليته، هذه العلاقة بين الأجزاء والكلّية عُرفت منذ عهد "شلايرماخر" مع الهرمنيوطيقا الكلاسيكية وانتشرت بعد ذلك حتى مع الهرمنيوطيقا المعاصرة التي تحدثت عن "قانون الكلّية والانسجام"[29] (canon de la totalité et de la cohérence).

ويتحدث جادامر عن فكرة الدوران[30]، وهي فكرة أساسية عند هذا المؤوِّل «يُفهم الكلّ من خلال الأجزاء والأجزاء من خلال الكلّ» –ونفس الفكرة نجدها عند پول ريكور– إن الإحالة الدائمة والمستمرة إلى كلية النص تضمن الإطار الصلب والثابت لكلّ عملية تأويل.

5- الماضي والحاضر: نحن لا نفهم الماضي إلا بفضل التحليلات المعاصرة والمعاصر لا يكون مفهوما وواضحا إلا بالإحالة والرجوع إلى الماضي التاريخي للنص؛

الماضي الذي يُقرأ ويؤوّل على مستوى الحاضر يشكّل صورة حاضرة للماضي، مهمة هذه الصورة هي استعادته واسترجاعه، يصبح هذا الماضي"ماضيًا" و"حاضرًا" في الآن نفسه، من هنا تظهر مرة أخرى العلاقة المتبادلة والمتعاقبة للذهاب والإياب تبادل المعاني والدلالات الماضية الحاضرة والحاضرة الماضية: هناك زمنان الزمن الماضي والزمن الحاضر، كل زمن يتعايش مع الآخر ويتداخل معه في علاقة متشابكة الأطراف وهما يعملان معا بطريقة فعّالة.

لا يمكننا أن نتحدث عن الماضي والحاضر دون أن نتطرق إلى مسألة التقاليد (traditions) التي تمثّل الاستمرارية للماضي بكل أشكاله؛ الماضي مستمر في الحاضر والحاضر "مشروط" بالماضي، مهمة الهرمنيوطيقا هي الحفاظ على التقاليد والعمل على استمرارها في الحاضر بحيث تلتحم الحقيقة الماضية مع الحقيقة الحاضرة وتكوّن نتاجا جديدا من منظور العصر الذي يعيش فيه المؤوّل، ومن خلال فهمه الخاص للتاريخ، والفكرة نفسها يقر بها جادامر ويؤكد عليها.

التقاليد عند "ميرسيا إلياد" هي تقاليد مشروعة وإيجابية ودالة ومنتجة؛ إنها ضرورية لتوضيح الرؤى ومراقبة الحاضر وكيفية التحكم فيه، نحن لا نفهم الوضعيات التأويلية إلا من خلال التقاليد ولا نؤوّلها إلا من خلالها أيضا.

كما يتحدث "إلياد" أيضا عن مسألة "الانفتاح" على التقاليد وكيفية الاستحواذ عليها، هذا الاستحواذ لا يكون بالسيطرة عليها بل بالدخول معها في علاقة حميمة ومن ثمّ تقبّلها؛ العلاقة التي يقيمها المؤوّل مع التقاليد هي علاقة حيّة، بهذه الطريقة يبقى الماضي "فاعلا" في الحاضر. لا تفعل الهرمنيوطيقا أكثر من أن تجعل تقاليد الماضي ملائمة لواقع الحال ونقصد بواقع الحال الوضعية التأويلية الحالية فهي تجدد المعاني القديمة باستمرار وتلبسها ثوبا جديدا في كل مرة من خلال الحركة الدائرية ماض حاضر؛ المقصود هو البحث عن فهم للتقاليد الماضية من خلال العصر الراهن الذي

نحيا فيه ثم نبحث بعد ذلك عن فهم أعمق لذواتنا داخل هذا المجموع الذي يشمل التقاليد الماضية والحاضرة معا.

لكي يرتقي عمل فني ما في سلّم الرتب عليه أن يكون مفهوما قبل كل شيء؛ عملية الفهم هذه ضرورية وأصيلة بها يستشرف القارئ المستقبل ويتوقع ما يمكن أن يكون.

6- رسم الحدود: وإذن ماهي حدود الفهم الهرمنيوطيقي؟ أو بعبارة أخرى: ما هي حدود الهرمنيوطيقا باعتبارها نظرية في الفهم الأصيل؟ هل يمكن القول بوجود تأويل موضوعي؟ وهل هناك إمكانية لوجود مثل هذا التأويل؟ هل يمكن أن نؤوّل موضوعيا موضوعات مثل الرمز والأسطورة والخرافة ...؟ ثم كيف نوفق بين المعنى الأحادي والمعنى المتعدد؟ وهل هناك معنى واحد يمكن أن نزعم أنه هو المعنى المنيع والوحيد والنهائي للنص؟

إن القول بوجود "يقين مطلق" في تأويل الأشياء ينافي روح الهرمنيوطيقا الحقة، ذلك أن التفكير الهرمنيوطيقي لا يقدّم تأويلات نهائية أو حيادية؛ يكون التأويل الهرمنيوطيقي تأويلا موضوعيا في الحدود التي يتطلّبها موضوع البحث ونوعيته. يرى بول ريكور أن المعاني والدلالات هي في الأصل معان متعددة ومضاعفة، هي نتاج علاقة سيمانطيقية حقة، ونفس الفكرة نجدها عند جادامر الذي يقر بأن للمعنى "طابعا إنتاجيا".

إذن، تتشكل الهرمنيوطيقا تحت نظام عالم مفتوح من الدلالات والرموز، هناك تولّد ذاتي للمعاني والدلالات، هذه الدلالات تختلف باختلاف العصور التاريخية. فالمعنى في الأدب بصورة خاصة هو معنى متعدد يتغير ويتشكل بصورة مستمرة؛ نجد في هذا فكرة هرمنيوطيقية مركزية لطالما أثارها "إلياد" في كتاباته لها علاقة بـ "بنية المعنى أو الدلالة". هذه الفكرة الهرمنيوطيقية المركزية مفادها أن المعاني الأدبية تكثر وتتزايد من خلال توالد إيحائي مستمر خاصة من خلال تلك الجدلية المستمرة للماضي

(ماضي الآثار الأدبية) في الحاضر وخلق أعمال وتجارب أخرى مستقبلية عبر خاصية "استنطاق النصوص"؛ فعمل بروست (Proust) «البحث عن الزمن الضائع» –على سبيل المثال–يستدعي قارئا وأي قارئ؟

في رأي "إلياد" أن المعاني والدلالات الجديدة والعميقة حاضرة بصورة مستمرة من خلال مساءلة النصوص. أن يكون الإنسان إنسانا يعني أنه يبحث عن الدلالة والقيمة، يبتكرها ويخرجها إلى النور ومن ثَمّ يعيد اكتشافها من جديد، من هنا كان رفضه لنوع من الفن المعاصر الذي يقف عند حدود ومعالم ما "قصده المؤلفون من مؤلَّفاتهم" وما يمكن أن تتضمنه من معاني ورموز. هذا الاتجاه في الفن وصفه "إلياد" بالعقيم وغير المنتج، وكان يشيد على الدوام بإقرار مبدأ تعدد التأويلات.

النقد الهرمنيوطيقي يهدف إلى فهم الأثر أو العمل الفني من خلال التدقيق في عناصره، بنيته وشكله أيضا مما يجعله يؤكد أن مسألة التأويل تتجاوز مجرد "النزوة العابرة" لتتغلغل في أعماق النص وحيثياته، إنه الحضور الفعلي لعناصر من قبيل الإشارة، الإدراك، وإعادة الخلق أيضا.

يقتضي الأدب رؤية أو منظورا ثلاثي الأبعاد يتمثل في النقد والجمال والفلسفة.

– **النقد:** ويعني ضرورة أن ننظر إلى النص باعتباره عالما مستقلا له قوانينه وبناه الخاصة به.

– **الجمال:** ونعني به القيم الشعرية للنص.

– **الفلسفة:** ونعني بها الجانب الخفي والمسكوت عنه في النص[31].

هذا يدل على أن هناك صلة وثيقة بين عمل المؤرخ وعالِم الاجتماع الأدبي والناقد الجمالي وهذا حتى يكتمل العمل ويتجه نحو رؤية شمولية عالمية لمسائل التفسير والتأويل ذلك أن مهمة تقييم العمل الأدبي هي من أصعب المهام على الإطلاق. لهذا السبب كانت رؤية "إلياد" لـ "النقد الهرمنيوطيقي" رؤية منتظمة يتداخل فيها التاريخ مع

الفلسفة وعلم الجمال والنقد. وهو توجه تبناه أيضا "التيار النقدي الجديد" من خلال سلسلة من المتشابهات من قبيل:

– النقد (critique) ويعني به سلسلة من الإيحاءات أو مجموعة من الدلالات المفتوحة.

– الخلق النقدي (création critique) ويعني الابتكار الدائم للدلالات والقدرة على التحفيز (تحفيز المخيِّلة).

– التقييم النقدي (évaluation critique) ويعني به شرح الأثر بالرجوع إلى الفكرة المركزية والتسلسل المنطقي والمعقول للنص برمته.

هذه الاعتبارات كلها تعيد إلى الواجهة من جديد طرح السؤال حول مسائل الفهم والتفسير.

7– المؤوِّل والحدود المرسومة: أين **موقع المؤوّل** من كل هذا؟ هل يمكن الحديث عن عدم مشاركة المؤوّل وعن حياده وموضوعيته؟

بالطبع لا، إذ بمجرد أن يأخذ المؤوّل على عاتقه مسؤولية الشرح والتفسير والتأويل، يكون قد انغمس روحا وجسدا مع تجربة النص، حينئذ يبدأ في استحضار تجارب سابقة مماثلة، و"يعيش التجربة مرة ثانية" من خلال أحداث النص فيضيف أشياء وينقص أخرى، يفصح عن معان ويسكت عن معان أخرى، وبذلك تكون عملية التأويل عبارة عن مغامرة وجودية عميقة البعد والدلالة، تتورط في هذه العملية من البداية إلى النهاية كل من الذات والموضوع على حد سواء، يقارن المؤوّل بين تجربة النص وتجربته الخاصة بحيث يرتد إلى ذاته، ويجعل من تجربته الداخلية الماضية تجربة آنية وبذلك يعيش هذه التجربة مرة ثانية ولا يكون ذلك إلا من خلال عملية طرح الأسئلة والبحث عن أجوبة.

يدخل الهرمنيوطيقي (المؤوّل) بالضرورة في علاقة خاصة مع موضوع التأويل، بمعنى أنه يلج عالم النص ويحاول فهم وإدراك جزئياته ودقائقه وفي نفس الوقت يدرك ذاته ويكتشفها من جديد؛ إنه يتفتح على النص عن طريق العيش مرة أخرى[32] في تجربة

هذا الأخير. كل تأويل له **مركز** (Centre) [33]، يتموضع المؤوّل بالضبط في هذا المركز، أي في قلب المشكلة وفي هذا المستوى تلتقي الذاتية والموضوعية وتتحدان في علاقة متشابكة ومتداخلة.

يبحث النص قبل كل شيء عمّن يفهمه ويعيشه من الداخل من خلال علاقة حميمة وإلا فكيف نفهم نصا من النصوص؟ كيف ننجذب إليه إذا لم تكن هناك هذه العلاقة وهذا الانجذاب والمشاركة والتبادل؟ التعاطف مع النص يعني أننا نخطو خطوة نحو الحب ولا نقصد بالحب "الحب العاطفي" بل المقصود هو "الحب الفكري"؛ فدانتي[34] (Dante) –على سبيل المثال–هو شاعر كبير، غير أنه لا يكفي أن نحب دانتي باعتباره "شخصية فذة" بل يجب أن نذهب إلى أبعد من هذا، يجب أن "نحب الشعر" وأن نتعرف على "عالمه الشعري" الكبير الخاص به، ذلك أن العمل الفني –في أساسه– يقوم على مسألتي "الإحساس" و"الفهم".

طبيعة الموضوع في العلوم الإنسانية تستدعي هذا التداخل وهذا التشابك بين ذات المؤوّل وموضوع البحث، عندما يدخل المؤوّل في علاقة مع النص يندمج أفقه التأويلي الخاص مع أفق النص وعندما يعيد بناء النص من جديد يستخدم بالضرورة أفكاره ومعارفه السابقة من وجهة نظر العصر الذي يعيش فيه.

إن قيمة التأويل أو لنقل نتائج التأويل تتوقف على مدى قدرة المؤوّل على الغوص في عالم النص ومدى قدرته على الفهم والإدراك وطريقته في الاستيعاب، بكلمة واحدة تتوقف على مدى ذكائه وفطنته. رداءة التأويل ترتبط برداءة المؤوّل، ذلك أن المؤوّل الحقيقي هو الذي يعي الحدود المرسومة له حينما يباشر عملية التأويل، صحيح أننا من غير الممكن أن نعيد بناء الماضي ونفهمه برمته؛ هناك عقبات جمة تعترض طريق المؤوّل غير أن المهمة في كل الأحوال ليست مستحيلة، وكل من يحاول فهم كل شيء،

فإنه في الحقيقة لن يفهم شيئا ذلك أن الفهم هو دائما "فهم تاريخي"، والمعرفة هي "معرفة تاريخية"، بمعنى أنها مشروطة بالزمان والمكان، وبالتالي فهي معرفة محدودة.

كلّ محاولة لتجديد أو بعث الماضي بالنظر إلى الظروف الأصلية هي محاولة فاشلة، غير مجدية أمام تاريخية الإنسان (تاريخية المفسّر)[35].

8- نحو رؤية هرمنيوطيقية مفتوحة: يتجدد التأويل باستمرار بحيث تظهر في كل مرة تأويلات جديدة وبذلك لا يمكننا الحديث عن تأويل نهائي، كامل وشامل؛ تتكرر الوقائع غير أنها تظهر في كل مرة بصورة مختلفة. من هنا كان الحديث عن نوع من "التعليق" أو "الإپوخا"[36] (Epoché) ونقصد بذلك تعليق التأويل في انتظار ظهور تأويلات أخرى وتساؤلات مختلفة في فترات تاريخية لاحقة.

ليست هناك موضوعية محايدة، ولكن هناك تقاليد ماضية استلهمتها روح المؤوّل وصاغتها من جديد من خلال الأفق الحاضر، ليست هناك موضوعية ممكنة فيما خلا "الوضعية التاريخية للنص والمفسِّر"؛ وحدها هذه الوضعية هي التي تحدد الطريقة أو الكيفية التي يتم بها التأويل، ليس هناك حد نهائي للمعاني والدلالات هذه الدلالات ليست "جامدة"، بل بالعكس هي دلالات مفتوحة (ouvertes) وقابلة للتطوّر المستمر عبر التاريخ. من هنا يمكننا الحديث عما يسمى **بالخلق الهرمنيوطيقي**[37] (La création herméneutique)؛ ونعني بذلك إنتاج دلالات جديدة مفتوحة على آفاق أخرى للبحث والنقاش ففي كل مرة نعيد قراءة ثقافة ما/ نعيد تأويلها إلا ونجد أنفسنا في موضع إعادة خلق لهذه الثقافة، أن "نعيش الظواهر مرة ثانية" يعني أننا نعيد خلقها من جديد، لأن نظرتنا الجديدة المشروطة بالوضع التاريخي الذي نحن عليه تعني بالضرورة أننا سنسبغ على هذه الظواهر أفكارا جديدة ورؤى تختلف عن تلك التي عُرفت بها من قبل، الفهم الهرمنيوطيقي هو دائما فهم تاريخي، من هذا المنظور تعبّر الهرمنيوطيقا

عن منهج في قراءة الظواهر حيّ وفعال، هذا المنهج يقوم على مبادئ "الإدراك" و"الإثارة" ثم "إعادة الخلق"؛ ونعني بذلك خلق النص من جديد.

الهرمنيوطيقا إذن معين لا ينضب من الدلالات المتعددة الدينية والتاريخية والسوسيولوجية والنفسية والثقافية المفتوحة والمتزامنة.

9- خاتمة: أفق جديد

تلك هي الهرمنيوطيقا الجديدة التي ارتضاها "إلياد" كبديل لرؤية مجتمع ضاق فكره وانحسر أفقه ضمن زاوية أحادية ضيقة انعكست على كل المستويات الدينية منها والأدبية، المقدسة وغير المقدسة؛ إن الهرمنيوطيقا هنا وسيلة لاكتشاف الذات من جديد من خلال مقارنتها مع الذوات الأخرى، في كل مرة يؤوّل المؤوّل نصا ويبحث فيه عن دلالات يعيد اكتشاف ذاته وفهمها من جديد من خلال القراءات المتعددة والتجارب الإنسانية المختلفة وبذلك تتبدل أفكاره وتغتني بشكل عميق.

إن التأويل هو شكل من أشكال الوجود الإنساني، إنه بعث وتجديد لذات المؤوّل من خلال تنقله بين جنبات النصوص والتجارب السابقة التي هو بصدد تحليلها وقراءتها ... إنه بمثابة "ولادة ثانية" له، ذلك أننا عندما نقرأ تجارب الآخرين، ونعيش "مرة ثانية" تلك التجارب نسائلها ونحاورها وندخل معها في علاقة حميمة حينها نصل إلى فهم أفضل لأنفسنا، وقد يؤول بنا الأمر إلى اكتشاف جوانب جديدة في ذواتنا بقيت كامنة ومستترة لم نكن لنكتشفها لولا قراءتنا لتلك التجارب، تتحقق الذات باستمرار من خلال مقارنتها مع تجارب الآخرين وهذا التبدّل الذي يحدث على مستوى الذات هو بمثابة تجربة جديدة أو مرحلة جديدة من مراحل اكتشافها.

الهرمنيوطيقا الخلاقة هي تلك التي تكشف عن دلالات جديدة لم نعرفها من قبل فيتغير بذلك وعي المؤوّل ويغتني من جديد، يحدث التغير على مستوى الوعي وعلى مستوى ذات المفكر كلّها، فيغتني بذلك عالمه ويغتني وجوده أيضا. ما يحدث في الأخير هو

"تجديد" عميق للذات مصحوب بـ "تحوّل كلي"[38] (transmutation totale) شامل وعميق. بهذا المعنى تبطل الهرمنيوطيقا كونها تمثّل "نظاما" (Méthodologie) ككلّ الأنظمة، تبطل كونها مجرد تخطيط لتأويل وشرح النصوص، الهرمنيوطيقا الحقة هي التي تتطور بتطور ذات المؤوّل، هي التي تحدث تغييرا عميقا في الوجود الإنساني وأخيرا هي التي تغني الفكر.

لا وجود لهرمنيوطيقا "مغالية" أو "متطرفة"[39] –كما بيّنا ذلك سالفا– ذلك أن الهرمنيوطيقا "الحقة" –كما يراها "إلياد"– هي تلك التي تفتح المجال واسعا لعالم الرموز والمعاني من حقبة تاريخية إلى أخرى، وبذلك تأخذ الطابع "الإنتاجي"، "الخصب" و"الأصيل".

10– قائمة المراجع:

- Gadamer (Hans Georg), Vérité et Méthode**.** les grandes lignes d'une herméneutique philosophique, Traduit de l'allemand par Etienne Sacre, Paris, Editions du Seuil, Collection l'ordre philosophique, 1967.
- Marino (Adrian):
- L'herméneutique de Mircea Eliade, Traduit du Roumain par Jean Gouillard, Paris, Editions Gallimard, 1981.
- La critique des idées littéraires , Traduit du Roumain par Michel Friedman, Paris, Editions Complexe, 1977.
- Szondi (Peter), L'herméneutique de Schleiermacher, in revue: «Poétique», Editions Seuil, N°70, 1987.

الهوامش والإحالات:

[1] - Adrian Marino, "**L'herméneutique de Mircea Eliade**", Traduit du Roumain par Jean Gouillard, Paris, Editions Gallimard, 1981.

[2]– آدريان مارينو كاتب وباحث ومؤرخ ومنظّر في الأدب الروماني، ولد في 5 سبتمبر 1921 بلازي (Lasçi) برومانيا. من مؤلفاته: الأدب الروماني (littérature roumaine)، إتيومبل (Etiemble)، المقارنية ونظرية الأدب (Comparatisme et théorie de la littérature)، نقد الأفكار الأدبية (La critique des idées littéraires). توفي في 2005.

[3] – Adrian Marino, "**L'herméneutique de Mircea Eliade**", p. 28.

[4]– مع أسطورة هرمس لا مجال للحديث عن حقيقة واحدة، فالحقيقة تتشطر إلى حقائق وهي في تطور مستمر بحيث نعجز عن أن نقبض عليها ولذا كان كل كتاب في هرمس يحمل شرارة من الحقيقة.

[5] – Adrian Marino, op. cit., p. 28.

[6] - Peter Szondi, **L'herméneutique de Schleiermacher**, in revue: «Poétique», Editions Seuil, N°70, 1987, p. 146.

[7] – Adrian Marino, op. cit., p. 41.

[8]- **ميرسيا إلياد** (Mircea Eliad) فيلسوف، كاتب وروائي روماني الأصل، ولد ببوخاريست في 13 مارس 1907. من بين أهم المؤسسين **لعلم الأديان المقارن** في القرن العشرين وأحد أبرز المفسِّرين **للرموز الدينية**؛ درس بعمق **الأساطير والخرافات والأحلام والتصوف**. شغل كرسي أستاذ تاريخ الأديان بجامعة شيكاغو الأمريكية، تأثر بفكر كارل غوستاف يونغ ويعتبر ميرسيا إلياد أيضا من أهم المعاصرين الذين تميزوا بالأصالة في معالجتهم للهرمنيوطيقا باعتبارها طريقة أو منهجا في التفسير.

أجاد عدة لغات وكتب فيها بطلاقة أهمها الرومانية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والعبرية، غير أن معظم إصداراته الجامعية كانت بالرومانية أولا ثم الفرنسية ثم الإنجليزية.

جمع بين المنهج الهرمنيوطيقي والمنهج الفينومينولوجي، وجمع أيضا بين الفلسفة والإبداع الأدبي في فن الرواية فكانت رواياته عموما تجسيدا لتأملاته الفلسفية

من مولفاته: المقدَّس والمدنّس (le sacré et le profane)، أسطورة العود الأبدي (le mythe de l'éternel retour)، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية (Histoire des croyances et des idées religieuses)، الليلة البنغالية – رواية (La nuit Bengali)، الأحلام والأساطير (Images et Symboles).

توفي في 22 أفريل 1986 بمدينة شيكاغو عن عمر يناهز 79 سنة.

[9]- **هانس جورج جادامر** (Hans Georg Gadamer) فيلسوف ألماني ولد بـ "ماربورغ" (Marbourg) سنة 1900، درس الفلسفة في "ليبزغ" (Leipzig) سنة 1932 و"فرانك فورت"

سنة 1947، و"هيدلبورغ" (Heidelbourg) سنة 1949. تأثّر من خلال تكوينه الفلسفي بالكانتية الجديدة (Neo-Kantisme) وبالفلسفة الفينومينولوجية. درس بعمق الفكر الفلسفي الإغريقي وجعل منه نموذجا للفكر المتجذر في التّاريخ.

حدث تقارب كبير بين آرائه في الفينومينولوجيا وآراء مارتن هيدجر فكلاهما يرى أنّ المنهج التّأويلي الذي يعتمد على قراءة الطّرف الآخر، هو موقف ذاتي يرتبط بلحظة زمنيّة معيّنة، وبتفاعل جدلي خاص. **من أبرز مؤلّفاته: «الحقيقة والمنهج»** (Wahrheit und Methode)، 1960. **« فن الفهم»، «الهرمنيوطيقا الفلسفية»، «مشكل الهرمنيوطيقا»**. توفي سنة 2002.

[10] – Adrian Marino, op. cit., p. 31.

[11] – Ibid., p. 32.

[12] – Ibid., p. 35.

[13] – Ibid., p. 35.

[14] – Ibid., p. 36.

[15] – Ibid., p. 49.

[16]– مصطلح "اندماج الآفاق" (fusion des horizons) ظهر أولا مع "هانس جورج جادامر" ثم أخذه عنه هانس روبرت ياوس تحت مسمى "أفق الانتظار" (horizon d'attente) ويعني به مجموع الخبرات المكتسبة عبر سلسلة من القراءات التاريخية يكتسبها المؤوّل أو القارئ وتشكل مجموع وعيه الحاضر.

[17] – Ibid., p. 49.

[18] – Ibid., p. 55.

[19] – Ibid., p. 107.

[20] – Hans Georg Gadamer, «**Vérité et Méthode.** les grandes lignes d'une herméneutique philosophique», Traduit de l'allemand par Etienne Sacre, Paris, Editions du Seuil, Collection l'ordre philosophique, 1967, p. 116.

[21] – Ibid., p. 118-119.

[22] – Adrian Marino, op. cit., p. 108.

[23] – ……. par Hans Georg Gadamer in «**Vérité et Méthode»,** op. cit, p.163.

[24] – Adrian Marino, op. cit., p. 109.

[25] – Adrian Marino, op. cit., p. 109.

[26] – Ibid., p. 109.

[27] – Ibid., p. 131.

[28] – Ibid., p. 132.

[29] – Ibid., p. 138.

[30] – Ibid., p. 138.

[31] – Ibid., p. 389-390.

[32]– عبارة "العيش مرة أخرى" هي للفيلسوف والمؤرخ الألماني "دلتاي" صاحب التفرقة الشهيرة بين "علوم الروح أو الفكر" و"علوم الطبيعة"، وقبله أورد الفيلسوف والرياضي الألماني المشهور "إدموند هوسرل" صاحب الاتجاه الفينومينولوجي في الفلسفة عبارة لخصت رؤيته الفينومينولوجية برمتها وتتمثل في مقولة "الرجوع إلى الأشياء ذاتها" (le retour aux choses mêmes) وذلك عندما أخذ على عاتقه تحديد مصطلح الفينومينولوجيا وبالضبط عندما حدد مفهوم "الظاهرة" وهي ذات العبارة التي استلهم منها دلتاي مقولته هذه؛ والمقصود أننا في أثناء معالجتنا للأشياء نعود دائما منها وإليها من خلال ارتداد عميق للذات.

[33] - Adrian Marino, op. cit., p. 198.

[34] - Ibid., p. 392.

[35]– في هذا إشارة مباشرة إلى شلايرماخر الذي يتحدث عن "فكرة المطابقة" (l'idée d'adéquation) ويقصد بها ضرورة مطابقة فكر المؤوّل مع فكر صاحب النص حتى يصبح وكأنه هو مؤلف النص، وهي ذات الفكرة التي عارضها هانس جورج جادامر وانتقدها في كتابه الحقيقة والمنهج.

Adrian Marino, **«La critique des idées littéraires»**, Traduit du Roumain par Michel Friedman, Paris, Editions Complexe, 1977, p. 222.

[36]– هذا المصطلح هو من المصطلحات الخاصة جدا التي عُرف بها مارتن هيدجر.

[37] - Adrian Marino, **«La critique des idées littéraires** », op. cit., p. 270.

[38] - Ibid., p. 279.

[39]– في هذا إشارة إلى أصحاب الاتجاه الأحادي في التأويل.